

حوار حول

العلاقة الجدلية بين الكينونة والملكية

شخصيات المحاوره:

- صونيا: صاحبة المنتدى الأدبي سيدة ثرية جميلة مثقفة تملك فكراً ليبرالياً وتؤمن بأن الحرية والعدالة أشياء تستحق أن يناضل الإنسان من أجلها.
- سليمان: مثقف يحمل لواء العقل وسيادة قوانينه.
- حسام: شاعر مبدع يملك ثقافة موسوعية، محبط.
- عبلة: طبيبة نفسية.
- بيار: صاحب مطعم فخم.
- سوزان: راقصة خريجة معهد فنون.

صونيا: البارحة وأنا أقرأ في كتاب لسليمان نشر منذ عقد ونيّف تحت عنوان
الغراب الأبيض إستوقفني هذا المقطع.

حرامٌ على عقولٍ إعصمت بلذة المعرفة، ووثقت بحلاوة سعادتها، أن تطمئن الى
غيرها.

حرامٌ على من أعزّه العقل الكلي بالخلق والابداع، وفتح له أبواب كنوز جواهر
المعقولات الخالدة، أن ينتكس باتجاه الشؤون العرضية الفائية، ويرتكس باتجاه
زخاريف الحياة الدنيا من مال ونفوذ وملذات.

بعدها ساءلت نفسي، ترى هل نحن في منتدانا هذا معنصمون بلذة المعرفة أم يشبّه
لنا، وهل نحن واثقون بحلاوة سعادتها أم يشبّه لنا، وهل أعزّنا العقل بالخلق
والابداع، أم نحن من القوم الذين تحيروا في أمرهم فتذبذبوا فغدوا لا الى هؤلاء ولا
الى هؤلاء.

أعذروني على هذه الاطلالة الغربية فما إن تشرق على قلبي شمس وجدي حتى
تراني أمتطي سهوة عقلي النقدي لأقتحم طلاس وجودي الانساني، وأسأل نفسي
آلاف الأسئلة، وأجيبها آلاف الأجوبة، ولكني للأسف أبقى محتارة متذبذبة لا الى
هؤلاء ولا الى هؤلاء.

حسام: وأنا أول البارحة هجر النوم عيوني فاستغلّيت المناسبة للسفر في أعماق
ذاتي والبحث في دهاليزها عن أحاسيس تائهة وخلجات ضائعة فكتبت هذه الأبيات
الشعرية:

وغطيت الحقيقة بالخيال
مزجت حرام دهرى بالحلال
وجدت القبح أكثر في خصالي
وقلت فلم يجد أثراً مقالتي

وكم سليت بالأوهام نفسي
أقول ولا أخاف الناس إنني
وقد حسنت خصالاً لي ولكن
كتبت فلم يفد شيئاً كتابي

سليمان: لولا نور العقل لما رأينا جمال الوجود، ولولا علم المنطق لما اطمأنت قلوبنا الى الحقيقة واستأنست بجاذبية المعرفة، لو لم تدعنا خميرة الألوهة المركوزة في جواهر ذواتنا الى سماع صوت الناموس، لبقينا صماً لا نسمع، بكماً لا ننطق. إنها الألوهة التي جعلت كوننا حياة لتكويننا، حتى إذا بلغنا إنسانية التكوين تجلت الألوهة لنا على مرآيا ذواتنا، فأصبحنا نحن الشاهد والمشهود، ونحن الوسيلة والغاية، ونحن المحجة والطريق الى المحجة.

سوزان: عندما تشرئب أعناق الرجال الى خصري وهو يميمس ويتلوى فتنّة وإغراءً، والى أردافي وهي تترجرج وتنبض بالرغبات الملونة والغوايات المبهرجة، والى أثنائي وهي تنهد متحديّة السماء في سموها والأرض في انسفالها، عندها لا أرى منطق عقل تطمئن له القلوب، ولا خميرة ألوهة تجعل كوننا حياة لتكويننا ولا أرى أي خلق وإبداع، وأي بصيرة وتبصّر، ولا أي امتطاء لصهوة العقل النقدي أو العقل الجدلي، كل ما أراه شهواتٌ شيطانية جامحة، ورغباتٌ محمومة مندلقة، وأحلامٌ شاردة فيما يُرى وفيما لا يُرى من تلال النار ومستنقعات الكبريت فروما من تحت ليست كروما من فوق.

بيار: أنا كصاحب مطعم علمتني مهنتي أنّ من يمسك الناس بشهواتهم هو الأوفر حظاً بالدخول الى قلوبهم لا من يمسك الناس بعقولهم، فأن تبرهن للزبون بالمنطق والأرقام ونتائج المختبرات عن جودة السلعة التي تقدمها له شيء، وأن تدغدغ حواسه ومشاعره وتغريه بتسويقك المشوق للسلعة شيءٍ آخر، وهذا الشيء الآخر هو الذي يربح الشوط. صدقوني الناس عقلها في أذنيها وعينيها وليس في رأسها فألف رحمة على نور العقل وخمير الألوهة والاستئناس بجاذبية المعرفة.

عبلة: مهنتي كطبيبة نفسانية أجبرتني على تنويم بعض المرضى مغناطيسياً علني أتلمس من بعض العبارات التي يتفوهون بها في أثناء غيبوبتهم بعض ما يساعدني على محاولة معالجتهم. في أكثر الأحيان كنت أتفاجأ كيف أنّ المرأة الهادئة المستكينة المؤمنة المبالغة في محافظتها، تخبئ في أعماقها كل ذلك الشوق الى التحدي والخروج على المألوف، فرغباتها في أقصى درجات الفجور والشذوذ، وكذلك أحقادها وشهوة الانتقام عندها من أقرب المقربين الذين تخضع لاراداتهم في

عالم و عيها بكل رضى وتسليم. أما عن الرجال فحدث ولا حرج عن ذلك الشوق الجامح الى هرق الدماء ولعقتها، والى ممارسة العنف الجنسي حتى مرحلة تمزيق وأكل اللحوم النيئة، أما موضوع المحارم فيسقط كلياً في ذلك البوح اللاواعي سواء عند الرجال أم عند النساء إلا في القليل النادر. في كثير من الأحيان أشعر بالخوف وأفكر جدياً في ترك مهنتي، بل إني في كل مرة أقسم أمام نفسي أنني لن أكرر تجربة التتويم المغناطيسي، ثم تراني أعود لأنكث بقسمي.

صونيا: دعوتكم هذه الليلة للتداول في العلاقة الجدلية بين الكينونة والملكية، وكلني أمل أن حوارنا سيبدد الكثير من الغموض الذي يكتنف هذا الموضوع. أنا شخصياً أراني أخطب خطب عشواء كلما أردت أن أقارب أو أباعد بين جوهر الانسان الذي يعطيه كينونته كإنسان، وبين ما يمتلكه من مال ونفوذ وسلطة وثقافة وعلم.

حسام: هل تسمحون لي قبل أن يبدأ الحوار ويحتمد أن أهرق بعض عطور شعري على مذبح جمال صونيا التي أعتبرها ربة من ربّات الحبّ والجمال فهي ملهمتي ورفيقتي في شطحاتي الخيالية.

سوزان: يحق للشاعر ما لا يحق لغيره هيا أسمعنا بعض حماقاتك.

حسام:

أرى فمها صيغ من حكمة
وأبخسه إن أقل من ذهب
إذا ابتسمت غار بدر الدجى
وإن نطقت تاه فنّ الأدب
حبتها الطبيعة مجد جمال
جثونا له وثنينا الركب
فهل أنصف الله سحر الغواني
"بصونيا" حتى أتى بالعجب
وهل بوئ الشعر عرش الدلال
يدغدغنا فيزول التعب

سوزان: ما زال هذا المترف المهووس يهذي حتى قال الشعر .

بيار: حنانيك فكثير من الإغراء يتمظهر بمظهر التحدي.

حسام: كلما فكرت في كينونتي كإنسان تضاربت الأفكار في رأسي وأوصلتني الى طريق مسدود، فأنا أسأل نفسي مثلاً هل أنا هو جسدي وما يحتويه من حياة وانفعالات ومشاعر وأفكار، فإذا كان الأمر كذلك فهل إذا بُترت يدي أو رجلي خسرت جزءاً من كينونتي كإنسان. أنا في منطق عقل أقول أنه لو بُترت ذراعي وساقاي وزال سمعي وبصري وقدرتي على التذوق والشم، لا أفقد كينونتي لأنني سأبقى رغم ذلك أعني ذاتي وأعني ذوات الآخرين، أعني وجودي، وأعني وجود جميع الموجودات، بل إنني لا أخسر قدرتي على الخلق والابداع فباستطاعتي أن أبداع قصيدة أو قصة أو مقولة فلسفية. وكذلك أستطيع أن أتواصل مع العقل الكلي ومع الله.

سليمان: نحن نكشف كل يوم عبر العلوم المتوافرة أنّ هذا الكون الشاسع تحكمه أنظمة دقيقة كل سبب فيها يتبع سببه، فلا شيء عبثي ولا شيء وليد المصادفة، ولا شيء يخبط خبط عشواء، بل هناك قوانين تنظم سيرورة هذا الكون من الذرة حتى المجرة. كل هذا يجعلنا نتيقن أنّ لهذا الوجود موجداً قد أوجده ونظمه وقومه على أحسن تقويم، ولما كان الأمر كذلك توجب علينا الاقرار أنّ ذلك الموجد قد أوجد هذا الوجود من أجل غاية وليس عبثاً أو تسلياً. أنا شخصياً أعتقد موقناً أنّ غاية هذا الوجود هو الانسان. ولما كان الوجود خالداً غير قابل للفناء كما يقول علماء الفيزياء توجب أن تكون غايته وهي الانسان خالدة بخلوده وإلا فقد الوجود مبرر وجوده، من هنا أتيقن أنّ النفس الانسانية العاقلة الحرّة خالدة لأنها قبسٌ من نور الموجد الذي أوجد هذا الوجود، وأنّ هذه النفس هي كينونة الانسان فهي التي تعطيه هويته ككائن حي عاقل حرّ مسؤول، وهذا الانسان بدوره الذي هو غاية هذا الوجود، وُجد من أجل غاية أيضاً ولم يوجد عبثاً وغايته هي معرفة الله بالحبّ والعشق والانجذاب لأنّ العقل الانساني بطبيعته تحت إحاطة الزمان والمكان والحدود المنطقية، والله منزّه عن أن يحيط به زمان أو مكان أو تحدّه صفة أو لغة أو عدد أو شكل.

حسام: طالما حدثتني نفسي وأنا أكتب القصائد الغزلية، أنّ جمال المرأة ليس إلا ظلالاً لجمال الله، وأنّ انجذابنا الى ذلك الجمال الأنثوي هو بدل ضائع عن انجذابنا الى جلال جمال الألوهة، وهنا أتذكر مقولة الكهف في جمهورية أفلاطون وكيف أنّ سكان ذلك الكهف الذين كانوا مقيدين بأيديهم وأرجلهم وأعناقهم ووجودهم باتجاه الحائط، كيف كانوا يحسبون الظلال التي تنعكس على حائطهم والعائدة الى أناس يمشون أمام باب الكهف وخلفهم نار موقدة فيعتقدون أنّ هذه الظلال هي الحقيقة، حتى فُدرّ لبعضهم أن يفكوا قيودهم وينطلقوا باتجاه باب الكهف ليروا الأشخاص الحقيقيين بعد أن اعتادت عيونهم النور، ولما عادوا الى رفاقهم في الداخل المعتم وأخبروهم عن الحقيقة أخذ البعض يهزأ والبعض يستنكر والبعض يعلن العداء وقلائل هم الذين اشتاقوا فكّ قيودهم والانطلاق الى خارج الكهف.

صونيا: هل معنى ذلك أننا ننظر اليوم الى ما نملكه من مال ونفوذ وسلطة وتقنيات فنظن أنّ حقيقتنا مربوطة بهذه الأمور، فنخلط بين الجوهر والعرض، وبين ما يفنى ويزول وما يبقى خالداً غير قابل للزوال.

بيار: الانسان بجسده وعقله إبن بيئته الطبيعية والاجتماعية، هل نستطيع أن نفصل بين الانسان وعصره من جهة ومحيطه الجغرافي من جهة أخرى. أليس الانسان على ما أنشأه عليه أهله فاذا كانوا وثنيين أو ملحدين نشأ وثنياً أو ملحداً، وإذا كانوا مسلمين أو مسيحيين أو بوذيين نشأ مسيحياً أو مسلماً أو بوذياً، وإذا ما عاش في بيئة تؤمن بالتبصير والتنجيم والخرافات والأساطير كان التبصير والتنجيم دينه ودينه.

عبلة: لا شك أنّ طبائع الانسان وانفعالاته النفسية مرتبطة بنشأته في أكناف الأسرة والمدرسة ومركز العمل، ولكن يبقى لكل إنسان خصوصيته وبصمته التي تميزه عن غيره. في عيادتي ملفات أسرية تظهر تبايناً شديداً بين الاخوة الذين نشأوا نفس النشأة وتعلموا في نفس المدرسة والجامعة وامتهنوا نفس المهنة. ولقد استدلّيت من ذلك أنّ لكل إنسان نفسه الناطقة الخاصة به والتي تحمل هويته الفردانية وبصمة وجوده، أنا كطبيبة نفسانية أجزم أنّ لكل إنسان كينونته الفردانية التي تحدد أناه بشكل مستقل ومتكامل، الأمر الذي جعلني لا أطبق نفس المفاهيم والمعايير على المرضى الذين تنتابهم نفس الحالات المرضية، فالعلاقة بين النفس والجسد علاقة

جدلية بامتياز، فهما يتفاعلان إما إيجابياً على خط التوافق، أو سلبياً على خط التنافر، وذلك حسب قدرة النفس على جذب طبائع الجسد الى طبائعها أو قدرة الجسد على جذب طبائع النفس الى طبائعه، أو فشل الاثنين معاً عندها تتنافر طبائع النفس مع طبائع الجسد وتحصل الاضطرابات الحادة وهذا ما أعالجه في عيادتي. وإذا كان التنافر في أقصى حدته حصل الانفصام في الشخصية فيصبح الانسان وكأنه إثنان في واحد.

سوزان: أنا أشك في وجود النفس أصلاً، فما أراه أمامي وأختبره كل يوم يدل على أنّ هناك جسداً حياً له انفعالاته وغرائزه ونزواته ولا شيء غير ذلك، وهذا الجسد مركب من عدة عناصر ولذلك يحكمه قانون الموت والانحلال لأن كل المركبات سيأتي يوم وتتحلل فيه الى العناصر التي ركبت منها، ولهذا نحن نقول الانسان من التراب والى التراب يعود. وهذا الجسد برأبي شأنه شأن كل كائن حي يتوق الى البقاء في الحياة والاستمرار ولهذا يندفع الى اللذة الجنسية ليتلذذ من جهة ويتناسل من جهة أخرى.

بيار: أفهم من كلامك هذا أنّ نشاط الانسان كله يدور على محورين، الأول التلذذ بالحياة التي يحيها وثانياً محاولة الاستمرار بالحياة، ولما كان الاستمرار مستحيلاً عبر الذات كان التوجه للاستمرار عبر النسل. وهنا أستطرد فأقول أنّ شوق الانسان الى تملك الأرض والبيت والتقنيات والنفوذ والسلطة ليس إلا وجوهاً من أوجه ذلك الشوق الى التلذذ والاستمرار.

صونيا: لقد نسيت أنّ الحيوان يشارك الانسان في التوق الى التلذذ والاستمرار، وهنا نقع في التناقض فاذا أنزلنا الانسان الى مرتبة الحيوان نكون قد جردنا الانسان من عقله وحرية وإرادته، وإذا رفعنا الحيوان الى مرتبة الانسان نكون قد أعطينا الحيوان عقلاً وإرادة وحرية ومسؤولية وهذا ليس بالكائن.

سليمان: وعي الانسان بذاته، ومعرفته بحقيقة كينونته شيء ثابت حتى لو أخرجنا الانسان من بيئته الطبيعية والاجتماعية، حتى لو وضعنا الانسان في سديم فراغ خال من الضوء والحرارة والبرودة والرطوبة واليوسية والجاذبية وكل ما له شأن

بالطبيعة، وما له شأن بتفاعل حواسه الخمس مع عناصر الطبيعة، لبقى الانسان قادراً على وعي كينونة أناه، فهو لا يغيب عن ذاته حتى وهو نائم يحلم، لماذا لأن هذه الأنا هي الجوهر النوراني الذي فاض عن الذات الالهية وانغرز في جبلته منذ فيضه خاصة الحرية والوعي والمسؤولية والحركة التصاعدية باتجاه التطور والارتقاء حتى الوصول الى مرتبة كمال النوع الذي يتكرس بالتواصل الدائم بين الفرع والأصل، بين المفيد والمستفيد.

حسام: ولكن لا تنسوا ارتباط الملكية بالكينونة تلاماً كارتباط الجسد بالنفس والمجتمع بالسلطة والحرف بالمعنى. إنه ليس إرتباطاً عرضياً، فلا يمكن تصور كينونة بدون ملكية مهما كبر حجمها أو صغر، وكذلك لا يمكن تصور نفس خارج إطار الجسد ولا معنى خارج إطار الحرف ولا سلطة خارج إطار المجتمع. وبرأيي المتواضع هذا هو الديالكتيك الحقيقي، صراع النفس والجسد داخل وحدة اسمها الانسان، وصراع السلطة والمجتمع داخل وحدة اسمها الدولة، وصراع الحرف والمعنى داخل وحدة اسمها اللغة.

صونيا: ولكن هل تستطيع النفس عندما ينهدم الجسد بالموت أن تأخذ ملكيتها معها، هل تستطيع أن تأخذ ما تملكه من أموال وعقارات وأسهم وشركات، هل تستطيع أن تأخذ ما تملك من جاه ونفوذ وسلطة وشهادات وأوسمة، بالطبع هي لا تستطيع أن تفعل ذلك، حتى المعلومات والمهارات التقنية وما تذوقته من لذات في حقول المأكل والمشرب والجنس والمصاحبة، كل ذلك لا تستطيع نفس الانسان أن تأخذه معها.

سليمان: ما تأخذه النفس معها هو فقط كينونتها، أي ذلك القبس النوراني الذي فاض عن الذات الالهية منذ بدء التكوين، والذي يحوي عقلاً غريزياً انطبعت على مرآته كل بديهيات الحقيقة، وعقلاً مستقداً هو قابلية التعلم والتطور، وعقلاً مفارقاً وهو القادر على تجاوز الجزئيات الى الكلليات والمحسوسات الى المجردات، ولكي أكون أكثر وضوحاً، النفس الانسانية عندما تغادر الجسد بموته لتحل في جسد آخر ولد لتوه، تأخذ معها كليات معارفها لا جزئياتها ومجرداتها لا محسوساتها، وهذا ما يمكن تسميته الحكمة.

بيار: ولكن لماذا تحلّ النفس في جسد وُلد لتوه عندما تغادر جسدها الذي انهدم بالموت، ألا تستطيع أن تمارس حياتها خارج إطار الجسد ثم تعود لتحلّ فيه ساعة تشاء في المكان الذي تشاء.

- سليمان: لا تستطيع النفس أن تمارس وعيها لذاتها ووعيها للموجودات خارج ذاتها ووعيها لله إلا من خلال جوارح الجسد وآلاته، فالبصيرة بحاجة الى بصر، والحب بحاجة الى حبيب، والعدالة بحاجة الى مجتمع، والمعارف الكلية بحاجة الى المادة لتتمظهر عبر معارف جزئية تنسحب عليها بواسطة الجدل الهابط، هذا هو ناموس الحياة، نكتسب المعارف الجزئية المحسوسة بواسطة عقلنا المستفاد فيرفعها بواسطة جدل صاعد الى عقلنا المفارق ليحولها الى كليات مجردة يحملها معه عبر سفره اللامتناهي في حيوات لا متناهية، ثم يعيدها بواسطة جدل هابط الى العقل المستفاد ليعود العقل المستفاد ليمظهرها معارف جزئية محسوسة ننتفع بها في حياتنا اليومية.

سوزان: عندما ينظر الرجال الى جسدي بعيون ذئاب مسعورة، مهياًة للانقضاض وتمزيق اللحم وازدراده، أقرأ في نظراتهم إعتقادهم بأنّ هذه الحياة هي فرصتهم الأولى والأخيرة لشرب كؤوس الملذات حتى الثمالة، وأكل أكبر قدر ممكن من لحوم النزوات الطبيعية وغير الطبيعية، في كثير من الأحيان أعود الى نفسي وأقول، لماذا ألوم إنساناً يشرب ولا يرتوي، ويأكل ولا يشبع، ويضاجع ويطلب المزيد من الأشكال والألوان والتقنيات، طالما أنه لا يعرف في أي لحظة سيموت ويغادر هذه الحياة الى غير رجعة. أليس من حقه أمام هذا الاستبداد الالهي أن يكون جشعاً في طلب ما يلذ له ويسعده ويرضي غروره وطموحاته حتى ولو كان ذلك على حساب الآخرين، أليست الحياة للأقوى وأنّ من يستطيع أخذ شيء بالمغالبة لا يأخذه بالمساءلة. أليس المحرك الحقيقي لهكذا أناس هو هربهم من الموت ذلك السيف المسلط على أعناقهم دون شفقة أو رحمة. إنهم يظنون أنّ التحرك باتجاه طلب المال والجنس والنفوذ والسلطة، هو تحرك باتجاه منابع الحياة الخالدة، وأنا شخصياً بقدر ما أحتقرهم بقدر ما أنا شريكة في تحركاتهم وتصرفاتهم.

عبلة: الانسان بوعيه وبلا وعيه يسعى باتجاه الملكية لكي يكرس ذاته بل لكي يحفر خواص ذاته على جبين المجتمع والتاريخ، يظن الانسان وهو معذور أنه إذا تملك أرضاً حفر خواص كيانه على ذرات تراب تلك الأرض، وإذا بنى بيتاً صنع هيكلًا ثابتاً ينوب عن هيكل جسده ساعة يتحلل هيكل الجسد، وإذا مارس الجنس مع امرأة فهو في وعيه ولا وعيه يريد أن يخترقها حتى كبدها وقلبها ليقذف ماء رجولته هناك فيطبع خصائص كيانه على صفحات ذلك الكبد والقلب، وإذا شرب خمرًا أراد أن يخلع قضبان قفص الجسد الكثيف المحدود عليه ينطلق الى الأفق البعيد حيث يحتضن الكون بكامله ليراقصه ويضاجعه ويتملكه. إن نزع الملكية متكاملة مع جوهر الكينونة فالانسان لا يتصور أنه قادر أن يعيش كينونته إلا عبر ملكيته.

صونيا: دعونا نضع حدوداً لمعنى الملكية لنستطيع إعطاء الحوار حقه.

بيار: أنا شخصياً أعتقد أن الجسد الحي والصحة والثقافة والأفكار والأحلام والآمال كلها تدخل في باب الملكية، قصير النظر من يعتبر أن الملكية مقتصرة فقط على المال نقداً أو عقلاً أو أسهماً أو شركات ووكالات.

سوزان: أكثر رجال الشرق يعتبرون النساء ملكية وكذلك الأولاد، ولذلك هم يربون أولادهم على قاعدة أن يكونوا صور طبق الأصل لهم، ويتعاملون مع النساء كوسائل مجانية للذة والانجاب، ولهذا أنا شخصياً أعتقد أنه لا يوجد في طول الشرق وعرضه رجلٌ واحدٌ يحب امرأة وذلك لسبب بسيط هو أن من يحب يريد الخير لمحوبه، ولما كان الله قد أعطى الانسان نفساً عاقلة حرة سيدة مسؤولة مستقلة متكاملة، كان من واجب المحب أن يرعى هذه الخصائص في نفس محبوبه، ولما وجدنا على أرض الواقع كيف أن الرجل يريد من المرأة أن تكون ظلاً له يسيرها حيث يشاء ويتوجب أن تعطيه ما يشاء دون أن يحسب لعقلها وإرادتها ورغبتها ومتطلباتها أي حساب، استنتجنا من ذلك أن الرجل يغتصب المرأة ويسترقها ولا يحبها، ثم يرتد اغتصابه واستعباده لها على نفسه فنراه يغتصب نفسه ويستعبدها وهكذا يصبح الرجل والمرأة معاً روبات ويفقدان هويتهما الانسانية. إنه الرجل الشرقي بكل ظلامياته التي تبررها له العادات والتقاليد والمعتقدات، في هكذا واقع ظلامي الأفضل أن ننكر وجود أي كيانية للانسان لنقول أن الانسان هو ما يملك،

ولذا الأفضل له أن يمتلك القوة ليغتصب الآخرين جسداً وجهداً وانتاجاً على أن يكون ضعيفاً يغتصبه الأقياء عقلاً وجسداً ظاهراً وباطناً.

سليمان: بيار يعتبر أنّ الجسد والصحة والثقافة والأفكار ملكية، وأنه لا يوجد على أرض الواقع إلا هذه الملكية، وأنّ هذه الملكية هي نفسها الكينونة، فليس في الوجود إلا ما هو موجود، والموجود هو دورة دموية تعطي الحياة لأعضاء يمسك بها جميعاً الدماغ وهو المسؤول عن كل شيء. لقد نسي بيار أنّ الانسان هو الكائن الحيّ الوحيد القادر أن يعقل نفسه ويعقل سائر موجودات هذا الوجود، ويعقل ما يصل اليه بالتجربة والتعليم عن طريق الحواس الخمس والجهاز العصبي والدماغ، ويعقل ما يفيض عليه من الله والعقل الكلي، ونسي بيار أنّ هذا العقل البشري مفطورٌ على الحرية فهو وحده القادر على قبول الشيء أو رفضه، على طاعته أو عصيانه، ونسي أنّ هذا العقل يستطيع أن يمارس لعبة خلق أشياء غير موجودة في عالم الوجود من عناصر موجودة، ونسي أنّ هذا العقل أو النفس العاقلة تحمل معها الى حيواتها الأخرى نور الحق والخير والجمال والعدالة المطلق الذي هو السعادة، وإما باتجاه ظلام الاستبداد والظلم والشرّ والتعدي والشذوذ المطلق الذي هو الشقاء. وإني ألفت النظر هنا أنّ ما نراه من ظلم واستبداد واستئثار بالمال والسلطة وتمييز بين الأفراد والأجناس والقوميات وما نعيشه من ظلاميات فكر قومي عنصري أو سلفي ديني هو إفراز نفوس إنسانية تطورت عبر حيواتها المتكررة باتجاه الظلام، وها هي تمارس ظلاميتها على أرض الواقع فتثمر الشقاء والجهل لنفسها ولملايين البشر الآخرين.

بيار: حنانيك يا صديقي سليمان لقد أشبعتني نسياناً وتناسياً ولكنني رغم ذلك تعاطفت مع كلامك الذي يقول أنّ الظلم والاستبداد هو إفراز نفوس تطورت باتجاه الظلام فهلا أضأت لنا أكثر على هذا الموضوع.

حسام: تصورت سليمان وهو يتكلم كراهب هندوسي يفتح كتاب الفيديا ويقرأ فيه ما كتب عن الكارما التي يمكن تلخيص مفاهيمها بعبارة واحدة تقول فيها للناس إنما هي أعمالكم تردّ إليكم.

صونياً: وإذا أردنا أن نضيء على هذا الموضوع لقلنا أنّ لكل فعل ردة فعل توازيه في القوة، ولهذا فكل أعمال الانسان الايجابية والسلبية سيكون لها ردات فعل موازية لقوتها سواء في هذه الحياة الآنية أو في حيوات لاحقة والعبرة في صرامة القانون ودقته، ولذلك من يمارس الأفعال الظلامية من تخويف وترهيب واستبداد وابتزاز واستغلال وارتهان، سترتد عليه هذه التصرفات وسيكاف له بنفس الكيل الذي كال به للآخرين.

سوزان: لو أخذ الناس العبر من هذا القانون لكان جشعهم وطمعهم وشرهم الى المال والنساء والخمرة والسلطة والنفوذ أقل بكثير مما هو عليه الآن، بل لكان من الممكن تصور القدرة على بناء المجتمع المتوازن العادل الذي طالما تحدث عنه سليمان.

سليمان: إني أفهم تماماً ماذا يقصد بيار بالاضاءة على هذا الموضوع الذي يمكن أن نستله بهذا السؤال، هل الجسد والثقافة والمعارف ملكية أم كينونة؟ جوابي المتواضع هو أنّ كل ما تستطيع نفس الانسان نقله معها عندما يموت الجسد يعتبر كينونة، وكل ما يتوجب تركه عند المغادرة يعتبر ملكية، إذا انطلقنا من هذه المقدمة ظهر لنا أنّ الجسد ملكية لأننا لا نستطيع أخذه معنا الى حياة أخرى، ولكننا سبق وقلنا أنّ النفس العاقلة لا تستطيع أن تمارس وعيها وعلمها وعملها إلا من خلال جسد آخر ولا تستطيع البقاء خارج إطار الجسد لأنها عند ذلك تكون موجودة بالقوة وليست موجودة بالفعل هنا يصبح مبدأ مصاحبة النفس الدائمة السرمدية للجسد كينونة أما ذات الجسد ملكية.

أما المعارف فهي إن بقيت في أطارها الجزئي المحسوس فهي ملكية لأنه لا يمكن نقلها الى حياة أخرى، ولكنها إن تحولت عبر الجدل الصاعد الى كليات مجردة تتجوهر بجوهر النفس وتفنى في طبائعها عند ذلك تصبح كينونة. وهنا يبرز مبدأ التطور والارتقاء وذلك بزيادة معرفة الكليات المجردة المتجوهره بجوهر النفس، ولما كانت زيادة المعرفة بالكليات المجردة هي التي ستحسم الصراع إما لصالح النور أو لصالح الشقاء، أو بعبارة أخرى إما لصالح الجنة أو لصالح جهنم.

عبلة: هل تقصد أنه حيث ينتصر الظلام فيسود الظلم والاستبداد والبغض والجشع والاستغلال والتمييز العنصري والتعصب الديني والقومي يتحدد موقع جهنم، وحيث تسود العدالة والمحبة والتوازن الاجتماعي بين الأفراد والطبقات والاثنيات والقوميات يتحدد موقع الجنة.

حسام: بالنسبة لي الجنة هي الجمال، وبما أنّ الجمال بشكله الجسدي والنفسي هو توازن وتناغم بين أعضاء الجسد وطبائع النفس فلا بدّ أن يكون بشكله الاجتماعي هو تناغم وتوازن بين شرائح المجتمع وطبقاته وأفراده، ولا بدّ أن يكون بشكله السياسي هو تناغم وتوازن بين السلطات، وبشكله الأخلاقي هو توازن وتناغم مع قوانين الطبيعة وقوانين العقل.

سوزان: بالنسبة لي الجنة هي المساواة التامة بين الرجل والمرأة وبين جميع الشعوب والأجناس والألوان، مساواة في الاستهلاك والانتاج وفرص التعليم والطبابة والملكيات المادية، لقد سئنا من بشرية تحكمها الفروقات المعيبة، فما يستهلكه كلب من اللحوم في الدول المتقدمة لا يستطيع أن يستهلكه ابن الطبقة الوسطى في البلاد المتخلفة، سئنا من تحكم الدول المتطورة بصناعاتها وتقنياتها ومراكز أبحاثها بالدول التي ما زالت في مرحلة الخبز والحشيش والقمر.

صونيا: سئنا الأنظمة الديكتاتورية التي تصدر عقول الناس وحرّياتهم، سئنا اغتصاب النساء وخطف الأطفال وبيع أعضائهم، سئنا تجهيل الشعوب بالمذاهب السلفية والطقوس الصنمية والأفكار الغيبية.

بيار: كل هذا موجودٌ عندنا نطحه تحت أسناننا فهل يعني هذا أننا في جهنم؟ وإذا ما كان هناك جنة فدلوني عليها لأنني لا أرى على سطح هذه الأرض سواء في البلاد الغنية أو في البلاد الفقيرة، المتطورة أو المتخلفة، إلا أقوياء يتحكمون بضعفاء ومتسلطين يصادرون العقول والحويات، لا أرى إلا تمييزاً بين الأفراد والأجناس والأعراق والألوان والقوميات، لا أرى إلا إغتصاباً للنساء والأطفال بطرق مختلفة ونتيجة واحدة، لا أرى إلا شنوداً في المسلكيات يخالف قوانين الطبيعة فحسب مقاييسكم الكرة الأرضية بكاملها هي جهنم.

سليمان: الجنة لا توهب لنا مجاناً علينا أن نبنينا بأنفسنا بالمحبة والتعاون والتضامن والتسامح والتواضع والمعرفة والحكمة وعملنا في هذا المنتدى قد يكون محاولة لغزل خيط رفيع يساهم في حياكة عباءة الجنة المطلوبة ولكن دعني أحلم وأشرد بعيداً في حلمي، من يدري فقد يكون هناك كوكبٌ آخر مسكون بأناس نورانيين محبين مبدعين عادلين يعيشون حياة متوازنة متناغمة مع قوانين الطبيعة وقوانين العقل، يتمتعون بسعادة ليست من عالم كرتنا الأرضية.

حسام: عندها يمكن أن نتخيل أنّ الأفراد المستنيرين المبدعين العادلين سواء بتعاملهم مع ذواتهم أو بتعاملهم مع الآخرين، يكافأون بانتقال نفوسهم بعد الموت الى ذلك الكوكب السعيد.

صونيا: لو كان الخيال طريقاً الى الحقيقة لتصورت أن يكون ذلك الكوكب السعيد تحت ظلّ حكومة واحدة هي حكومة العقل، حيث البديهيات المنقوشة على مرايا العقول مكشوفة للجميع لا يحجبها ضباب الشهوات الجامحة والرغبات المحمومة. وسبل التواصل مع الحق والخير والجمال واضحة معروفة من قبل الجميع، أتخيل أنّ الناس في ذلك الكوكب على تواصل دائم بالله، فهو إما متجل على عروش قلوبهم نوره يضيء في سرائرهم وعلى قسماط وجوههم والناس جميعاً في حالة عشق وهيام فهو أقرب اليهم من حبل الوتين كما يقال. وإما أن يتجلى لأولئك الناس السعداء بصورة كصورهم تماماً فيظهر لهم بأفعالهم ويخاطبهم بلغاتهم لكي تستأنس به ظواهرهم وبواطنهم كما كان دائماً يردد سليمان.

سوزان: إذا تجلى الله لنا بصورة كصورنا هل الرجل يراه بصورة رجل، والمرأة تراه بصورة امرأة، والطفل يراه بصورة طفل؟

سليمان: لا هذا ولا ذاك ولكن الناظر اليه هو تماماً كالناظر الى نفسه في المرآة لا يرى إلا صورته، عندها يعلم أن الله عنده وفيه ومعه رغم عجز عقله عن الاحاطة بمعرفته وهذا تماماً ما عبّر عنه فريد الدين العطار في ملحمة الصوفية الشهيرة رحلة الطير، وفي هذه اللحظة يمتلئ عقل الانسان وقلبه وضميره بفهم معنى كينونته كإنسان وبفهم معنى الله وذلك حسب منزلته في مدارج النور.

صونيا: وما هو الشيء الذي نحدد به " أو نقيس " منزلة الانسان في مدارج النور؟
ولماذا تتفاوت المنازل بين إنسان وإنسان؟

سليمان: لكل فرد إنساني منزلته في الله ولكل فرد إنساني طريقه الى الله، فلا أحد يحلّ محلّ أحد، ولا أحد يأخذ حصة أحد، ولكن لكل امرئ ما سعى، والسعي برأبي المتواضع ليس بحمل صليب التكليف والفرائض والطقوس ومظاهر العبادات، ولكن السعي بتطهير النفوس من الخبائث والشؤون العرضية فصفاء السرائر يثمرها شوقاً لا محدود وحباً لا يعرف المدى الى الله. أن نحبّ الله ليس فقط بقلبنا وعقلنا وضميرنا ولكن نحبّه حتى بأجسادنا حتى بأعمالنا وأحلامنا حتى بمأكلنا ومشربنا حتى ونحن نمارس الحبّ رجلاً وامرأة ونكون إثنين في واحد.

حسام: صدقوا أو لا تصدقوا فأنتم أحرار، في بعض مغامراتي العاطفية كنت أشعر وأنا أتودد الى صديقتي وكأنني في معبد أصليّ، أبتهل، أسافر بقدم الروح، كنت أشعر بأن الحبّ طهارتي وبأنني أنوب في عدالة متوازنة لها ألوان قوس قزح.

سوزان: أنا لا أصدق كلمة واحدة مما تقولون، فالإنسان أكثر الحيوانات افتراساً وحباً لاغتصاب الآخرين واسترهانهم والتهامهم مهما حاولتم أن تجملوه، وهذه الكينونة التي فلسفها سليمان حتى وصل فيها الى مرحلة الناظر الى نفسه في المرأة أنا لا أصدق منها شيئاً والاستشهاد بالعطار أو جلال الدين الرومي أو السهروردي أو الحلاج لا يزيد المقولة يقيناً، هناك جسد حيّ له غرائزه وأحاسيسه وانفعالاته وما عدا ذلك باطل الأباطيل.

حسام:

هربت ثقافتنا
خرفاً من الجراد في الطرق
ثوقاً الى الأضواء في الشفق
فركضت أستجلي مسالكها
ونظرت لم ألمح سوى شبح
ظلّ أبعثره على ورقي

صونيا: وأنت يا صديقنا سليمان ماذا تقول في كلام سوزان؟

سليمان: أردد ما قاله الشاعر:

سكرت بلا دنّ وخمر
كنت الغبي فلست أدري

حالي كحالة أمة
إنني دريت وليتني

Mail@kamalsarieddine.com

www.kamalsarieddine.com